

## شجرة ثقة أم غابة علاج

في كتاب « مختار الصحاح » للامام الرازي ان كلمة ثقة من الائتمان... والثقة من ( الميثاق ) العهد... ومنه قوله تعالى ( وميثاقه الذي واثقكم به) وقوله تعالى (فشدوا الوثاق)... والثقة هي العملة الاجتماعية الوحيدة المتبادلة بين الناس... هي أساس العلاقات الانسانية التي تقاس بمعيار واحد... صدق القول ومصداقية الفعل. واذا اهتزت هذه القاعدة في مجال التعامل. سقطت قيمة كل أنواع ( العملات ) الأخرى والتي تخضع للعرض والطلب... الأخذ والعطاء... الرفض والقبول.

أما الثقة فصفة مطلقة إما أن تكون أ لا تكون. فكما يقول ديكارت « أنا أفكر... اذن أنا موجود « فالمقابل « أنا واثق... اذن أنا موثوق به « وانعدام الثقة يمكن أن يلغي وجود الانسان معنويا في قلب الآخرين ويلغي ذاته داخل وجوده. جماع النقيضين.

### مفتاح الشخصية

في كتاب مقدمة ابن خلدون نجد أن « الثقة مفتاح الشخصية » هي أروع ما كتب في علم الاجتماع في سنوات ميلاده الأولى... وبالقياس نستطيع ادراك أهمية عامل الثقة في العلاقات الاجتماعية والانسانية... وتحديد معالم الشخصية للفرد والجماعة... فالثقة هي لغة التخاطب ووسيلة

الاقناع بين الحاكم والمحكوم... البائع والمشتري... الصديق وصديقه...  
الرئيس والمرؤوس والطالب والمعلم واخيرا وليس آخرا الطبيب والمريض.  
وقد قال تعالى « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » والعهد من  
المعاهدة... والمعاهدة ميثاق بين الطرفين... عقد... والعقد شريعة  
المتعاقد... فاذا اختلفت أطراف المعادلة أو رجحت كفة الميزان في اتجاه  
أو آخر بصورة ضد اتجاه الثقة... تهدمت كل جسور الوصول الى قلب  
ووجدان الفرد... وهذا لب القضية.

وما يجول في خاطري في اطار الحديث عن عامل الثقة... أهمية الثقة  
في عنصر العلاقة بين الطبيب والمعلم... وبين الطبيب والمريض... وغير  
ذلك قد يعلو قامتي في الوصول اليه أو يعجز قلبي عن الخوض فيه... لا  
طمعا ولا رهبة... ولا خوفا ولا رهبة ولكن لكل مقام مقال.

ان حركتي محكومة بدائرة تضيق وتتسع بحكم الالتزام الوظيفي والخلق  
المهني فالضوابط الوظيفية تفرض أن أدلو بدلوي في القضايا التربوية  
واخلاقيات المهنة تستلزم أن أكون طرفا في قضايا العلاقة بين الطبيب  
والمريض.

## الطالب والمعلم

ان ثقة الطالب في المعلم... قد تكون بداية رحلة لم يخطط لها... أو  
نهاية مشوار حرق في مسيرته حصاد السنين... قد يكون تغيير قناعات  
عاشت عليها الأسرة مثل الميراث وتبديل تطلعات بني عليها الابوان جبالا  
من الآمال والأمنيات وقد يكون دور المدرس تلخيصا موجزا وسريعا  
لجهود طويلة ومكثفة خلال سنوات قضت الأسرة الليالي الطوال في نسج  
خيوطها والوصول بها الى مشروع قرار، وقد يكون في الاتجاه الصحيح  
للطالب أو الاتجاه الخاطيء للأسرة ولكنه يبقي وليد الثقة التي تولدت بين  
الطالب والمعلم... وهنا تتضح عوامل الشد نحو ميول المعلم أكثر قوة من  
عوامل الجذب نحو الأسرة... سلبا أم ايجابا... فاذا أدركنا هذه الحقيقة

يستطيع المعلم أن يدرك الى أي مدى يستطيع أن يروض العنيد ويطوع الجامح بنيته ثقة يغرستها في نفس الطالب... في المناخ المناسب فتمتد فروعها الى السماء وجذورها الى باطن الأرض وسط غاية علاج فسدت من كثرة الحرث والري الخاطيء والصحيح... والنبته الطيبة تعطي ثمرا طيبا والغابة الكثيفة تفرز الصالح والطالح والخبيث والطيب وعملية الهدم والبناء أكثر تكلفة من وضع لبنة جديدة في أرض عذراء...

### الطبيب والمريض

ان ثقة المريض بالطبيب تكاد تكون العملة الوحيدة النادرة التي لا تقدر بثمن ولا تخضع للمساومة ( وللذهب ثمن ولا ثمن للثقة ) وعندما يمتلك الطبيب الموهبة أو القدرة على خلق هذه الثقة وعندما يتمكن المريض من الحصول على هذه الثقة يقطعان نصف الطريق الى العلاج... فالأجهزة الالكترونية والمعدات النووية... والمختبرات الحديثة ترشد الخبرة ولا تستبدل الثقة... وتصبح بطاقة تموين نافذة الصلاحية في يد المريض اذا فقد الثقة في صاحب التوقيع... فالمريض منذ البداية يجهل هوية هذه المعدات ويتردد في جدوى هذه الفحوصات وقطعا يجهل ماهية النتائج... فتبقى الثقة بين الطبيب والمريض هي الخيط الرفيع الذي يفصل بين الصحة والمرض... بين الشك واليقين وقد تعجب حين تعرف مرضى من ( مدمني المستشفيات ) يعانون بجانب الشكاوي المتعددة والمتجددة من مرض مشترك. أزمة الثقة فيترددون على أكثر من طبيب ويجرون أكثر من فحوصات متكررة لمرض واحد... يبحثون عن فرد يتعامل معهم باللغة التي يفهمونها والعملة التي يتبادلونها ( الثقة ) فقد يقنعون بأنهم أصحاب وهم على شفا حفرة من الموت وقد يؤمنون بأنهم مرضى وأجسامهم تفيض بماء العافية... والسر في هذا الاعتقاد ( والعقدة ) في هذه المصيدة هي الثقة بين الطبيب والمريض.

وحتى نكون أكثر دقة في الملاحظة علينا أن نطالع ( باب الشكاوي ) في الصحافة المحلية حول معاملة الطبيب. والمريض نجد في أكثر الأحيان

أن الحلقة المفقودة هي سوء فهم وليدة أزمة ثقة... أكثر منها ضعف كفاءة أو سوء اداء ولو توفر الحد الأدنى من الثقة لما اشتعل هذا القدر الهائل من الحرائق.

والمؤسف حقا أنه كثيرا ما يفوتنا ادراك بساطة الاثر في سحر ( الكلمة الطبية ) في نفوس الآخرين ( ان الله طيب لا يحب الا طيبا ) ان كثيرا من بذور الثقة تنشأ في لحظة الانطباع الأول الذي يتركه الطبيب في نفسية المريض... أما نبتة طيبة تأتي اكلا طيبا... أو شجرة خبيثة في غابة علاج داخلها مفقود وخارجها مولود... فكثير من الأطباء المشهود لهم بالقدرة والكفاءة فقدوا ثقة أبسط المرضى في لحظة الخيار بين الموت والحياة لأنهم لم يحالفهم الحظ في فهم نفسية المريض وتلبية حاجته في حدود المثل الطبية دون الاخلال بقسم ( أبو قراط ) والذي وضع المريض في مرتبة في مصاف الملائكة.

لقد اثير هذا الموضوع في المجلة الدورية ( المجلة الطبية البريطانية ) قبل أسابيع حول اثر ( البلاسيو ) في علاج المريض.

وفي شرح (المورد) فالترجمة العربية لكلمة البلاسيوتعني « الدواء الذي يعطى لمجرد ارضاء المريض أو كل ما يهدىء أو يرضي ) وطيبا تعني العقار فاقد الفعالية والنشاط البيولوجي والكيميائي... وهو فعل مشروع وخيرة معروفة للأطباء معمول به في كل مستشفيات العالم في ظروف خاصة وحالات معينة وخبرة كافية وقد أجريت التجارب على عينة من المرضى أعطيت لهم عقاقير طبيعية... وعينة أخرى أعطيت ( البلاسيو ) وقد وضح أن العينة الأخيرة أبدت تحسنا ملحوظا مما يدل على أن عامل الثقة في الطبيب أو العقار يلعب دورا أساسيا في علاج المريض الى جانب العناصر العلمية والانسانية الأخرى...

والطبيب الذي يفقد ثقة المريض يخسر نصف المعركة منذ صفارة البداية... والثقة امانة في عنق الطبيب ومسؤولية في ضمير المريض.

والحقيقة الثابتة ان حدوث أزمة الثقة في الطبيب هي بداية الدخول في غابة علاج وهي أخطر مؤشر لأزمة الضمير بين الطرفين ( وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ).